مقام الصبر
عند الصوفية

بقلم الأستاذ
أبو الوفا التفتازانى
مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب
بجامعة القاهرة

قال تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » صدق الله العظيم .

مقام الصبر من أعلى مقامات السلوك عند الصوفية ، وقد اقترن الصبر بالإيمان ، فهو على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم نصف الإيمان ، فلا إيمان لمن لا صبر له ، وقال الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « عليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، ولا خير فى إيمان لا صبر معه » .

وقد تحدث شيوخ الصوفية فى معنى الصبر ، فعبر كل واحد عن ذوقه ، وجميع ما عبروا عنه من معانى الصبر مستمد من أدب القرآن والسنة ، حتى أن بعض الخواص عرفوا الصبر بأنه « الثبات على أحكام الكتاب والسنة » .

ويظهرنا القشيرى فى رسالته على أن الصبر على أقسام : صبر على ماهو كسب للعبد ، وصبر على ماليس بكسب له ، فالصبر على المكتسب على قسمين : صبر على ما أمر الله تعالى به ، وصبر على ما نهى عنه . وأما الصبر على ما ليس بمكتسب للعبد فصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله فيما يناله فيه مشقة .

وما يعنيه القشيرى هو أن الإنسان ينبغى أن يكون متحققا بالصبر فيما هو كسب له ، وفيما ليس بكسب له ، فتحققه بالصبر على ماهو كسب له مما أمر الله تعالى به هو

صبره على العبـــادات والفروض الدينية ، كالصلاة والصوم والزكاة والحج وما إليها وجميعها محتاج إلى الصبر فى أدائها . أما تحققه بالصبر على ماهو كسب له مما نهى الله عنه ، فصبره على مجاهدة نفسه ، وصرفها عما تنزع إليه من الشرور والمعاصى على اختلاف ألوانها . وأما الصبر على ماليس بمكتسب للعبد فهو الصبر على مايصدم به الإنسان من أحداث الزمان ونوائبه التى يجب أن يتقبلها صابرا راضيا ، فيقول الشاعر فى هذا المعنى :

الصبر أفضل شىء تستعين به
على الزمان إذا ما مسك الضر

والصبر من الناحية النفسية هو ضبط للإرادة حين يشعر الإنسان بألم نفسى أو جسمى . ويواجـــه الإنسان فى حياته مواقف مختلفة تقتضى منه أن يسلك بإزائها سلوكا معينا يؤدى إلى غاية مرسومة ، فإذا لجأ الإنسان إلى الانفعال فى حل مشاكله كان سلوكه مضطربا بعيدا عن الصواب وغير محقق لهدف سليم أما إذا لجأ إلى التروى والتفكير العميق كان سلوكه صائبا صحيحا موصلا إلى هدف محقق للخير ، وهذا النوع من السلوك الصائب منبعث عما يعرف بالصبر على مواجهة المشكلة ومحاولة حلها حلا صحيحا .

والصبر من الناحية الأخلاقية فضيلة يجب أن يتحلى الإنسان بها ، ولاغنى لجميع أفراد المجتمع البشرى عنه : فالحكام محتاجون إليه فى سياسة الرعية ، وأهل العلم محتاجون إليه فى القيام بأبحاثهم ، والجند محتاجون إليه فى قتال أعدائهم ودعاة الأخلاق والفضيلة محتاجون إليه فى نشر مبادئهم وآرائهم . أضف إلى ذلك أن الصبر أصل تفرعت عنه الفضائل الأخلاقية الأخرى كالعفة والشجاعه والصدق والأمانة والحلم والزهد :

فالعفة صبر عن ما تشتهيه النفس وتلح فى طلبه من ملذات ، والشجاعة صبر حين البأس ، والصدق صبر على ماتنزع إليه النفس من قول الكذب للتخلى عن المسئولية ، والأمانة صبر على ما يؤتمن عليه الإنسان ، والحلم صبر على إيذاء الغير ، والزهد صبر

عن المأكل والمشرب وسائر ملذات الحياة .

وهناك معنى آخر للصبر انفرد الصوفية بالكلام فيه وهو معنى ذوقى عرفانى . فالصوفية قوم أحبوا الله عز وجل فأحبهم الله وتقربوا إليه تعالى فقربهم إليه ، وملك عليهم حبهم هذا مسارب الحس ، فغيبهم عن عالمهم المادى المحسوس ، وأصبحت حياتهم مرتبطة كل الارتباط بهذا الحب الإلهى ، فيقول سلطان العاشقين عمر بن الفارض :

إن الغرام هو الحياة فمت به
صبا فحقك أن تموت وتعذرا

لهذا تحنين الأرواح إلى الله دائم وقد عبر السهرورودى عن هذا المعنى أيضا بقوله :

أبدا تحن إليكم الأرواح
ووصالكم ريحانها والراح

وقوم هذا حالهم لا يطيقون أن تفتر صلتهم بربهم عز وجل ، أو تغفل قلوبهم عن ذكره لحظة واحدة ، فهم يصبرون أنفسهم مع الله ، ولا يستطيعون الصبر عنه ، فالصبر يحمد فى جميع المواطن إلا إذا كان صبرا عن الله عز وجل ، وأنشد شاعرهم يقول بلسان الحال :

الصبر يحمل فى المواطن كلها
إلا عليك فإنه لا يحمل

وهناك معنى أخير من معانى الصبر عند الصوفية من الشاذلية ، وهو أن الصابرين قوم اختصهم الله بعنايته فصبروا عن التدبير مع الله تأدبا معه واقرارا بالعبودية له تعالى ، فيرى ابن عطاء الله السكندرى أن تحقق السالك بمقام الصبر يكون بمحض العنايه الإلهية بحيث إذا أراد الله أن يقوى السالك على ما يريد أن يورده عليه من أحكامه ألبسه تعالى من أنوار وصفه ، وكساه من وجود نعته ، فتنزلت الأقدار وقد سبقت إلى السالك الأنوار ، فكان السالك بربه لا بنفسه ، وعندئذ يقوى على تقبل المقادير مهما يكون فيها من شدة وألم ، ومادام السالك مؤمنا إيمانا تاما بالقدر ومشاهدا لحسن اختيار الله وجماله ولطفه به وعطائه له ومتحققا بإسقاط التدبير والإختيار مع الله ، فهو لا يجزع بوجود المصائب وورود الشدائد ، بل يصبر على ما يريد الله مؤمنا بأن ألطاف الله

لاتنفك عن أقداره . واستمع إلى ابن عطاء الله مبيناً هذه الأسباب التي تدعو السالك إلى الصبر ، وكونها فضلا من الله يمن به على من من يخصهم بعنايته : « إعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أن يقوى عبدا على مايريد أن يورده عليه من وجود حكمه ألبسه من أنوار وصفه وكساه من وجود نعته ، فتنزلت الأقدار وقد سبقت إليه الأنوار فكان ، بربه لابنفسه ، فقوى لأعبائها وصبر للأوائها : وإنما يعينهم على حمل الاقدار ورود الانوار ، وإن شئت قلت : وإنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الإفهام ، وان شئت قلت : وإنما يعينهم على حمل البلايا واردات العطايا ، وإن شئت قلت : وإنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره ، وإن شئت قلت وإنما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه ، وإن شئت قلت : وانما يصبرهم على ماجرى علمهم بأنه يرى ، وان شئت قلت: وانما يصبرهم على القضا علمهم بأن الصبر يورث الرضا ، وان شئت قلت : وإنما يصبرهم على الاقدار كشف الحجب والاستار ، وان شئت قلت: وانما يقويهم على أثقال التكليف ورود أسرار التصريف ، وان شئت قلت : انما يصبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه وأبراره . فهذه عشرة أسباب توجب صبر العبد وثبوته لأحكام سيده ووقوفه عند ورودها . وهو (أى الله سبحانه) المعطى لكل ذلك بفضله والمان بذلك على ذوى العناية من أهله »

أبو الوفا الغنيمي